باريسنا!

بيار أبي صعب

تأخّر فيلم دانيال عربيد الأخير في الوصول إلى بيروت، لكنّه وصل أخيراً. وعلينا الاحتفال به بقوّة. نحتفي به، ليس فقط لأنّ هذه المخرجة اللبنانيّة بنَت بهدوء مساراً سينمائيّاً على حدة بين أبناء وبنات جيلها (7 أفلام قصيرة تجمع بين الوثائقي والإبداعي والروائي، و4 روائيّة طويلة). مسار قوامه الابتكار والجرأة، ونكء الجراح الجماعيّة، والتجرؤ على المحظورات السياسيّة والأخلاقيّة والفكريّة. موضوعة الجنس تحديداً، تحتلّ مكانة أساسيّة في رؤيا عربيد وخطابها. نحتفي بعربيد العائدة، ليس فقط لأنّها واجهت مشاكل رقابيّة مؤسفة، وتكاد تبدو «مرذولة» في بلدها منذ باكورتها الروائيّة «معارك حب» (2004)، كأن بيروت ضاقت بأفلامها، بل لأنّ شريطها الروائي الرابع «باريسيّة» (أو «لا أخاف شيئاً») الذي يعرض الآن على الشاشات اللبنانيّة، هو أكمل أفلامها، وأنضجها، على مختلف المستويات: السيناريو (كتبته مع جولي بير وبيار شولير)، والتمثيل (منال عيسى اكتشاف الفيلم، دارينا الجندي... وحفنة من الممثلين الفرنسيين المكرسين والجدد: دومنيك بلان، فينسان لاكوست، بول آمي...)، والفكرة، والخطاب، والتصوير، والمونتاج والموسيقى... وطبعاً الإخراج وإدارة الممثلين.

في فيلم عربيد الجديد الذي صوّرته بإنتاج صغير في خلال أقل من شهر (تحيّة إلى المنتجة اللبنانيّة سابين صيداوي)، كل شيء ممتع، ومتقن، وقد اختفت تلك الهنات التقنية والدراميّة الصغيرة التي تندسّ في الكثير من الأفلام اللبنانيّة رغماً عنها.

نحن أمام دانيال التي نعرف ونحبّ، من خلال عمل متقن ومكتمل: مقاربتها للجنس كلغة تمرّد وانعتاق وتحقيق للذات، وتصويرها للرغبة والشبق و«رائحة الجنس» (عنوان فيلم مميّز لها 2008). مقاربتها لذاكرة الحرب المسخنة التي تعود في أفلامها باستمرار وبأشكال مختلفة. طرحها لإشكاليات الثقافة ووعي الذات (الأنثويّة غالباً)، الهويّة والآخر. الآخر هنا هو فرنسا: تسلّط المخرجة الضوء على وجهها التقدمي الأممي العقلاني، فرنسا المولعة باللغة والفكر والجدل والنقد. من خلال أستاذة الجماليات ومحامي المهاجرين والشباب الثوري (نفسه الذي يقف هذه الأيّام في ساحة La République احتجاجاً على السياسة الليبراليّة لحكومة هولاند). فرنسا ليست فقط «أمّنا الحنون» (!) بالمعنى الاستعماري البائس الذي تلوكه الرجعيّة اللبنانيّة، بل فضاء التحرر، الإرث التنويري، النهضوي الذي يتجلّى على امتداد «باريسيّة» في إحالات مختلفة إلى القيم الجمهوريّة ونظريّات الأدب وعلم الجمال، إلى غي دوبور وجان جينيه وماريفو، إلى جيل الروك LES Négresses Vertes... إلى اليسار الأخلاقي في مواجهة صعود اليمين النازي.

بنَت عربيد أحداث فيلمها في باريس التسعينيات حين كانت الآمال ممكنة. هنا تأتي هذه اللبنانيّة الشابة، لتعيش معموديّة «المواطنة» في السوربون، لتصارع، لتنتزع حقّها في أن تصبح باريسية ـ أي إنسانة حرّة، ومواطنة من العالم ـ رغم كل العوائق. ينتابنا الحنين في الفيلم، إلى تلك المرحلة: حتّى إلى شارل باسكوا. كان كل شيء أجمل من هذه الميوعة الاشتراكية التي تبدو سياساتها، في زمن «الإسلاموفوبيا»، أسوأ من ممارسات وزير الداخليّة اليميني المتشدد (الراحل). نعيش الأحداث ونراها بعيني تلك الصبيّة اللبنانيّة الهاربة من وصاية الجماعة، من العنف الذكوري والسياسي، بحثاً عن ذاتها. «باريسيّة» فيلم فرنسي، بعيون لبنانيّة. إنّه قصتنا الحميمة، نحن الذين هربنا إليها من قيود اجتماعيّة وعنف أهلي وبنى تقليديّة قاتلة. مثل لينا بطلة عربيد، اتخذنا من باريس ملاذاً، وبحثنا فيها عن ذواتنا الضائعة، ومثُلنا وأحلامنا الوجوديّة والسياسيّة. وصرنا ما نحن عليه الآن! كأنّ دانيال عربيد تصوّر لـ «تتملّك» حصّتها من فرنسا، وتذكّر فرنسا بوجهها الحقيقي، في زمن الردات الليبراليّة، والخوف والانغلاق والتشدد...

خلال أسبوع واحد، استقبلت بيروت أعمال بشار خليفة، وعمر راجح، ودانيال عربيد. يمكننا القول، في هذا الزمن الصعب، إن الثقافة اللبنانيّة تقاوم. الثقافة اللبنانيّة بألف خير!

سينما

دانيال عربيد «لا تخاف شيئاً»

لعلّ «باريسية» هو أكثر أفلام المخرجة اللبنانية ذاتية وحميميةً. يتناول فيلمها الروائي الرابع في رصيدها، جزءاً من تاريخها الشخصي وسفرها إلى عاصمة الأنوار، وصراعها للتأقلم تزامناً مع اكتشاف هويتها

تميز أداء منال عيسى بعفويته وتماسكه

بانة بيضون

قد يكون «باريسية» (2015 ــ 120 دقيقة) من أكثر أفلام دانيال عربيد (1970) حميمية وذاتية (الأخبار 11/4/2016). يتناول الشريط الروائي الرابع للمخرجة اللبنانية، جزءاً من تاريخ المخرجة الشخصي وسفرها إلى باريس، وصراعها للتأقلم في هذه المدينة التي تزامن اكتشافها مع مرحلة تكوين هويتها. ليس المغزى من ذلك، تبيان إلى أي حد يقارب الفيلم في تفاصيله حياة المخرجة فعلياً، فكل فيلم هو ذاتي بحيث يحمل نظرة المخرج تجاه نفسه وحياته أو تجاه شخصيات أخرى تضحي انعكاساً لذاته عبر عدسة الكاميرا التي هي مرآة اللاوعي كما الأحلام. لكن ذاتية الفيلم تتجلى في شفافيته التي تجعل منه عملاً خاصاً في مسيرة المخرجة. من ناحية السرد، فالفيلم يتمتع ببناء مبسط ومتقن في آن معاً. سلاسته تتأتى من قدرة المخرجة على جعل المشاهد يدخل في جلد البطلة «لينا» (الممثلة منال عيسى)، ويتماهى معها في رحلة الاكتشافات الذاتية التي تخوضها كمهاجرة في باريس. هي معارك صغيرة، تلك التي تخوضها البطلة من دون أن تدري أنها ستكون الأهم في حياتها منذ هروبها من بيت زوج العمة الذي يتحرش بها وتحقيق استقلاليتها، وصولاً إلى اكتشاف الحب والجنس، والخيبات العاطفية الأولى، والعلاقة بالأهل والوطن والماضي الذي لا تجد سبيلاً للتصالح معه. عبر التفاصيل الصغيرة اللماحة (والساخرة غالباً) التي ترصدها المخرجة ببراعة، تشرح علاقة البطلة بهذا المجتمع الجديد الذي تدخل إليه، ومحاولتها فهم آليات التواصل فيه. هي كما أي مهاجر، تحتفظ في البداية بدفاعاتها ورهبتها من الآخر المجهول، غير أنها شيئاً فشيئاً، تخرج من شرنقتها، وتكتشف أنها حين تطلب المساعدة، ستجدها. المذهل والمضحك في ما ترويه دانيال عربيد عبر هذا الفيلم، هو كيف تصنع حياة بأكملها عن طريق المصادفة، فوجود البطلة وحيدة تماماً في باريس بعد هربها من بيت عمتها، يدفعها إلى الطلب عشوائياً المساعدة من فتاتين فرنسيتين غريبتين. تسكن معهما في البداية، وعبرهما تجد عملاً وتتعرف بالمصادفة إلى الرجل الذي تخوض معه علاقة عاطفية للمرة الأولى. بالمصادفة أيضاً، ومدفوعة بحالة الضياع الكلي التي تجد نفسها فيها، تكتشف شغفها بالفن حين تدخل إلى صف آخر غير صفها، وتواظب على الحضور هناك إلى أن تكتشف معلمة الفن الفرنسية الطريفة التي تؤدي دورها الممثلة الفرنسية دومينيك بلان أنّها غير مسجلة وتساعدها في تغيير مضمار دراستها. هي روعة اللا انتماء الذي تكتشفه البطلة حين تخرج من حدودها الآمنة وشخصيتها التي رسمتها تجاربها السابقة. في هذا البلد الغريب الذي لا يعرفها فيه أحد، تستطيع أن تكون من تشاء. هذا الشخص الوهمي الذي تبنيه كل هذه المصادفات، يصبح هي في النهاية، الهوية الجديدة التي اكتشفتها أو كونتها تقريباً من دون أن تدري. أيضاً، تسخر المخرجة من الصورة الوهمية التي تشعر لينا أنّها مضطرة لرسمها عن لبنان للفرنسيين، بما يناسب توقعاتهم عن أهوال الحرب التي عاشتها هناك كأن تصف مشهد الجثث أو غيره، هي التي لم تر شيئاً منها في الحقيقة. الحرب كما تقول لصديقها شيء غير مرئي، ولا تتذكر منها سوى صوت القذائف وشجار أهلها الذي كان مزعجاً أكثر في إحدى اللقطات الذكية التي يتميز بها الحوار. من السهل أن يتماهى أي مهاجر مع حياة لينا في باريس، وصراعها للتأقلم، وعالمها الصغير الذي يتكون شيئاً فشيئاً هنالك، حيث كل لقاء، كل حوار أو كل صديق تتعرف إليه، يضحي جزءاً أساسياً من حياتها ومفتاحاً لفهم هذه المدينة الجديدة. ليست هنالك خاتمة فعلية للشريط، فهو يشبه نوعاً ما الحياة في إيقاعه، فلا خلاصة شافية ولو أنّ المخرجة تنهيه بانتصار لينا الصغير والمؤقت حين تقرر المحكمة عدم ترحيلها من باريس وتجديد إقامتها. لكن هذه الخاتمة هي فرصة لاستكمال هذه الحياة والهوية التي بدأت بتكوينها والارتباط بها.

> تأرجح الفيلم في لغته السينمائية بين أسلوبين مختلفين

على ضفة مقابلة، تواكب اللغة السينمائية السرد السينمائي في سلاسته، وتتبع رؤيا البطلة إلى باريس، وسينماها الخاصة التي ينسجها خيالها حول هذه المدينة وما تعيشه فيها، كما علاقتها الشغوفة بعشيقها الفرنسي المتزوج التي تشبه في تركيبتها ـ كما تصورها المخرجة ـ الحلم أو كليشيه العشق على الطريقة الفرنسية عن قصد لتعود البطلة إلى الواقع فيما بعد، وتواجه خيبتها العاطفية الأولى. الفيلم يتأرجح في لغته السينمائية بين أسلوبين مختلفين ترسم عبرهما المخرجة الحدود ما بين واقع البطلة وأحلامها. لكنه في المجمل، ينجح من خلال جمالية المشاهد في تجسيد الحالة النفسية للبطلة التي هي صامتة في الغالب. كذلك، تميز أداء الممثلة منال عيسى بعفويته وتماسكه، معززاً بالتالي من تناغم باقي عناصر الفيلم.

«باريسية ـ لا أخاف شيئاً» لدانيال عربيد: صالات «أمبير» (1269)، «فوكس» (01/285582)